الباب الحادي عشر

مالُ النَّفسِ

قال الرسول الخاتم ﷺ:

"لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع:

عن عمره فيما أفناه..

وعن جسده فيما أبلاه..

وعن ماله من أين أخذه وفيمَا انفقه..

وعن علمه ماذا عَمِلَ به".

(حديثٌ صحيح).

مال النفس

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

الناسُ على اختلافهم إنما لهم هدفٌ واحدٌ..

هو صلاح المعاش والمعاد..

والراحة في الدنيا والآخرة..

والسبيل إلى تحقيق هذا..

هو العقل الصحيح..

والعقل..

هو غريزةٌ مكنونةٌ في القلب..

تلك الغريزة التي تظل ساكنة خاملة..

لا قوة لها، ولا حياة بها، ولا منفعة عندها..

حتى يحركها العلم..

وتحييها الحكمة..

مثل الحبة المدفونة في الأرض..

لا تقدر على أن تتخلص من جمودها..

وتظهر قوتها..

وتطلع فوق الأرض بزهرتها ونضرتها ونمائها..

إلا بمعونة الماء..

الذي يصل إليها في مكمنها..

فيُذهِب عنها أذى الجفاف والموت..

ويُحدِثُ لها بإذن الله القوة والحياة..

وهكذا العقل..

ونحن بنا إلى العقل الصحيح حاجة شديدة..

لأنه الوسيلة إلى صلاح الدين والدنيا..

وها أنا أنقل إليك من كلام الحكمة المحفوظ حروفًا..

على العاقل أن يعلمها..

ولا يضيِّعها..

حتى لا يحكم عليه عقلُه بمقارنة الجهَّال..

ذكر الإمام (ابن المقفع) – وهو عملاق الأدب والسياسة – في كتابه الماتع (الأدب الصغير والأدب الكبير) قال:

"وعلى العاقل مخاصمة نفسه، ومحاسنتها، والقضاء عليها، والإثابة لها، والتنكيل بها..

أما المحاسبة..

فيحاسبها بمالها..

فإنه لا مال لها إلا أيامها المعدودة، التي ما ذهب منها لم يُستَخلَف كما تستخلف النفقة..

وما جُعِل منها فى الباطل لم يرجع إلى الحق..

فيتنبه لهذه المحاسبة عند الحول إذا حال، والشهر إذا انقضى، واليوم إذا ولَّى..

فينظر فيما أفنى من ذلك..

وما كسب لنفسه فيه، وما اكتسب عليها، في أمر الدين وأمر الدنيا..

فيجمع ذلك في كتابٍ فيه إحصاءٌ وجِدٌّ، وتذكيرٌ وتبكيتٌ للنفس، وتذليلٌ لها..

حتى تعترفَ وتذعِن..

وأما الخصومة..

فإن من طباع النفس الأمارة بالسوء أن تدَّعي المعاذير فيما مضى..

والأماني فيما بقى..

فيردُّ عليها معاذيرها وعِللها وشبهاتها..

وأما القضاءُ..

فإنه يحكم فيما أرادت من ذلك على السيئة بأنها فاضحةٌ مُرديةٌ موبقة..

وللحسنة بأنها زائنةٌ منجية مربِحة..

وأما الإثابة والتنكيل..

فإنه يَسُرُّ نفسه بتذكر تلك الحسنات، رجاء عواقبها، وتأميل فضلها..

ويُعاقب نفسه بالتذكر للسيئات، والبَشَعِ بها، والاقشعرارِ منها، والحَزَنِ لها..

فأفضلُ ذوي الألبابِ أشدهم لنفسه بهذا أخذًا..

وأقلهم عنها فترة". أهـ

مالُ النفس هو أيامها المعدودة..

هذا ثانِ أصلٍ – بعد العقل – من أصول الغنى والاستمتاع..

يضيعه للأسف كثيرٌ من الناس..

ذلك..

"وأصل الأمر في المعيشة..

ألا تَنِيَ(٨٣) عن طلب الحلال..

وأن تُحسِن التقدير لما تُفيدَ وما تنفق..

ولا يغرَّنك من ذلك سَعَةٌ تكون فيها..

فإن أعظم الناس في الدنيا خَطَرًا(٨٤) أحوجهم إلى التقدير..

والملوك أحوج إلى التقدير من السوقة..

لأن السوقة قد تعيش بغير مالٍ، والملوك لا قِوام لهم إلا بالمال..

ثم إن قدرت على الرفق، واللطف في الطلب، والعلم بالمطالب، فهو أفضل". أهـ

(٨٣) من التواني والتقصير.

(٨٤) أي قَدْرًا ومكانةً.. انتهى.

فاحرص على هذه الأصول حتى تحقق ما تريد من غنىً واستمتاع..

وبالله التوفيق..

خلاصة الباب:

كثيرٌ من الناس يطلبون الفصول، ويضيعون الأصول .. فلا يتحقق طلبهم .. فالمالُ فصل، والعقل أصل .. والمال فصل، والحياة أصل .. والمال فصل، وطلب الحلال أصل .. فأكثر الناس يطلبون الأموال، ويحرصون على جمعها .. ولكنهم إما يتكاسلون عن طلب الحلال، وإما ينفقون أعمارهم فيما لا طائل من وراءه، وإما يضيعون عقولهم .. فهم إن ظلوا هكذا، فلن يحققوا ما يريدون .. فاحرص على الأصل، قبل أن تطلب الفصل ..

وبالله سبحانه التوفيق.